البنية المقطعية في سورة القارعة (إيضاح لجمالية الإيقاع)

م.م. خالد حويـر الشمس
كلية الآداب/ جامعة ذي قار

إن تعدد القراءات للنص القرآني من اكبر الأدلة على ثرائه الإعجازي وقيمته الإبداعية، فكل مختص يحاول الولوج لكنه النص القرآني وسبر دلالته، بحسب زاويته واختصاصه، فان كان تركيبيا ففي مجاله، وإن كان صرفيا كذلك، وإن كان فيلسوفا، أو صوفيا، وهكذا، حتى نصل بعد تعداد يطول إلى من كان جماليا، إيقاعيا، أو أدبيا على منوال تفسير محمد رشيد رضا في (المنار) وسيد قطب في (في ظلال القرآن).

الإيقاعي الصوتي على وجه الخصوص يتلمس الصدى الصوتي في النص القرآني محاولا ابداء أو اظهار الجمالية القرآنية من خلال مباحث محدودة السجع، التكرار، الفاصلة. .. أي إنـه قد تتفرع الحقيبة الصـوتية إلى فروع، منها التأثير الأسلوبي من خلال استعمال مخارج الحروف وصفاتها، المجهور مهموسا احيانا وغير ذلك وهذا ما عرف بالمستوى التركيبي في الدرس الصوتي الحديث أو الأساسي. أو منها المستوى فوق التركيبي أو الثانوي ومصاديقه النبر، والتنغيم، والطول، والقصر، وهكذا.

وقد وقفت في البحث على جمالية قرآنية من زاوية صوتية، التزمت المقطع سمة لرصد الايقاع . ولا أدعي الحقيقية أو جمالية القرآن، تحريتها في سورة من السور القصار ألا وهي (القارعة)، اذ هي من السور ذات المعالم الأسلوبية الإيقاعية الواضحة. وبالمحاولة والتفتيش استلزم أن يكون مفردات الايقاع ودراسة المقاطع في القارعة من جهة، التكرار، والفاصلة، والتعادل، والوقف، والمناسبة.

ردد البحث مقولات المحدثين (المورفولوجيين)، أمثال هنري فليش، وعبد الصبور شاهين، وغيرهم من دون التصريح بأحد منهم، بل تبين ذلك في الجانب التطبيقي من البحث.

هدف البحث الأول محاولة تطبيق المقطع اللغوي على النظام القرآني، وهل نفلح بتحليل النص القرآني كله في هذه المحاولة.

توصل البحث إلى ذلك مبرزا نتيجة يحسبها كبرى، أن المقطع اللغوي متواشجا مع القصد القرآني الذي شخصه المفسرون، لا الذي يتزعمه الباحث والبحث، أي موافقة دلالة المقطع لما توصل إليه المفسرون من دلالات قرآنية في هذه السورة موضع البحث، ومن المفسرين الذين رجعت إليهم، الطبرسي، وسيد قطب، والطباطبائي.

أولا: التكرار :

حده في المنظومة البلاغية: دلالة اللفظ على معناه مرددا[١]، ويكون في اللفظ والمعنى، وأحيانا في المعنى من دون اللفظ[٢]، وكثيرا ما يقع في الألفاظ من دون المعاني، ولا يخفى الطابع المترتب في المعنى عن طريق التكرار، وأمثلته كثيرة في النص القرآني، والنص العربي الفصيح، ولعل ذكرها يغنينا ويلهينا عن المطلوب، وهذه المرة التكرار حمل بعدا ايقاعيا مضافا إلى ذلك، ويدرس هنا من باب تكرار المقاطع الصوتية. ليحقق البعد الجمالي في السورة القرآنية موضع البحث.

اذ كرر المقطع الطويل المفتوح ثلاث مرات في ثلاث آيات لسورة مكونة من احدى عشرة آية قصيرة. وجاء التعبير القرآني ﴿الْقَارِعَةُ۞ مَا الْقَارِعَةُ ۞ وَمَا أَدرَاكَ مَا الْقَارِعَة﴾

{ القارعة * ما القارعة * وما ادراك ما القارعة }

ق ـً ق ـً ق ـً

وما التكرار هذا الا لاضفاء صفة الجمالية القرآنية التي تعني معنى التهويل والتقريع في هذه السورة، اذ ذهب المفسرون إلى أن الجو العام للسورة فيه تبشير للقيامة، ويغلب فيه جانب الانذار[٣]، لذا جاء أو التزم المقطع الطويل المفتوح (ص ح ح) وورد بأكثر من صورتين.

وسنشير إلى هذه المقاطع بعد التقطيع الآتي:

ء ـَ ل / ق ـً / رِ / ع ـِ ه

م ـَ ل / ق ـً / رِ / ع ـَ ه

وَ / م ـً / ءَ د / رَ ـً / ك ـَ / م ـَ ل / ق ـً / رِ / ع ـَ ه

ق ـً = ٣ مرات

م ـً = مرة واحدة

ر ـً = مرة واحدة

والمجموع يكون أن المقطع الطويل المفتوح جاء خمس مرات.

ويلحظ أن ما يبعث به التكرار المقطعي ينسجم وما جاء به اصحاب التفسير القرآني الكبار، اذ تكرار المقطع الواحد في ثلاث آيات وهو الطويل المفتوح كما ذكرنا (ق ـً) لينم عن قوة اثر اللفظة ومعناها القرع. وهذا ما يتماشى مع ما ذكره الشيخ الطبرسي في مجمعه[٤].

ثانيا / الفاصلة

كثرت تعريفات الفاصلة، فقيل منها: ((كلمة آخر الآية، كقافية الشعر وقرينة السجع، وقال الداني كلمة آخر الجملة))[٥]، وقال الرماني: ((الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع توجب حسن افهام المعاني))[٦].

ولها وظيفتان، تلخيص معنى الآية تلخيصا يظهر به المعنى المراد منها. أو بتعبير آخر اكمال المعنى القرآني[٧]، فضلا عن الأثر الموسيقي المترتب عليها، يقول عنها تمام حسان: ((ومع ذلك تأتي الفاصلة في نهاية الاية لتحقق للنص جانبا جماليا لا يخطئه الذوق السليم، لاننا مهما يكن من شيء نحس أنها تضفي على النص قيمة صوتية منتظمة))[٨].

وما احدثه المقطع الصوتي في تناسب الفواصل وانسجامها لتحقيق التماسك الإيقاعي، وهذا لا يعني إبعاد أثرها في المعنى لا، ولكن نسلط الضوء على زاوية الايقاع، حيث جاء المقطع المديد (ص ح ح ص) في آيتين وسط السورة في فاصلتين هما مبثوث، منفوش، من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ۞ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ ﴾

مبثوث: ك ـَ ل / ف ـَ / ر ـً / ش ـِ ل / م ـَ ب / ث ـُ ث

منفوش: ك ـَ ل / ع ـِ ه / ن ـِ ل / م ـَ ن / ف ـُ ش

ث ـُ ث

ف ـُ ش

وتكررت مراعاة الفاصلة مرة أخرى في السورة نفسها، ولكن بصورة مغايرة عن الأولى، إذ جاءت هذه المرة بالمقطع الطويل المغلق (ص ح ص) في تسع آيات:

رقم الاية

١. القارعة: ء ـَ ل / ق ـً / ر ـِ / [ع ـَ ه] في حال الوقف.

٢. ما القارعة: [ع ـَ ه]

٣. ما القارعة: [ع ـَ ه]

٦. موازينه: م ـَ / وـً / ز ـِ / ن ـَ ه

٧. راضية : ر ـً / ض ـِ / ي ـَ ه

٨. موازينه : ن ـَ هـ

٩ . هاوية : هـ ـً / و/ ي ـَ هـ

١٠ . ماهية : م ـً / هـ ـِ / ي ـَ هـ

١١ . حامية: ح ـً / م ـِ / ي ـَ هـ

أظن هذه المرات التسع حققت تلاؤما موسيقيا أبدع فسحة جمالية طيبة جعلت من القارئ المتأمل رصد وتذوق الحقيقة المختفية وراء موسيقى الآيات، وهي الهدف من تسجيل ونزول السورة القرآ نية لبيان حقيقة القارعة. ولبيان مشهد من مشاهد القيامة كما يعبر سيد قطب(٩).

ومما هو مدهش أن المقطع يتكرر من حيث الإيقاع أي مقطع طويل فعلت، والبنية نفسها فثلاث مرات ع ـَ هـ، وأربع مرات ي ـَ هـ ومرتان ن ـَ هـ.

ثالثا / التعادل:

سمي بتسميات كثر عند القدماء فمنهم من سماه بالتوازي والمحاذاة والتساوي أو المجاراة والتكافؤ وغيره، وعرفوه في كتبهم بتعريفات مختلفة، أبرزها ما مفاده جعل لفظتين أو تركيبين متوافقين في الخفة والثقل، وغيرهما من الأحكام النحوية، والصرفية وغيرها(١٠).

ولنعد إلى الجانب التحليلي من سورة القارعة، إذ بإمكان النص القرآني أن يأتي بهذه الصورة ﴿الْقَارِعَةُ۞ ومَا أدراك ما الْقَارِعَةُ﴾ من دون الآية الثانية ﴿ما القارعة﴾ لكن أبى الا أن يكون ككفتي ميزان وبينهما حبل في الوسط، وهاتان الكفتان حملتا معنى التعجب، إذ الأولى تعجب من القارعة بصورة غير قياسية دل عليها السياق القرآني بأكثر من مقطع:

ء ـَل / ق ـً / ر ـِ / ع ـَ هـ

هذه المقاطع نفسها تكررت تماما للوصول إلى تكافؤ الصورتين وهي:

م ـَل / ق ـً / ر ـِ / ع ـَ هـ

الدالة على تعجب المولى لنبيه (صلى الله عليه واله) ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ﴾. اذ معناها: يا محمد لا تعلم حقيقة امرها. وماهية صفاتها على وجه التفضيل(١١).

ثم الحبل الوسط كما عبرت بحمل البنية المقطعية نفسها تماما وهي

م ـَل / ق ـً / ر ـِ / ع ـَ هـ

ليكون بذلك صفا متزنا معتدلا متساوياً في ثلاث آيات عبرت عن معان عدة، الأول تعجب والثاني استفهام والثالث تعجب. نصل إلى تساوي البنية القطعية واختلاف المعنى.

ولاحظ التعادل المقطعي الآخر في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ﴾ في الآية رقم (٤) و﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ﴾ من الآية رقم (٥) لو قطعناهما:

م ـَ /ي ـَ/ ك ـُ/ ن ـُ ن

و ـَ/ ت ـَ / ك ـُ/ ن ـُ ل

ليدلك على عمق تطاير الناس في النار، كتطاير الفرَاش في الهواء في أكثر من جهة وذلك يأتي بجملة معادلة أو بجزء من جملة بالفاظ مختلفة، لكن بوزن متفق، ويرسخ هذا الشأن، أو ليزيد من هول الأمر وشدته، حيث في حين ثبّت الرواسي في الأرض وجعل لها أوتادا واليوم ها هي ذات الأوتاد، أي: الجبال كالصوف تتطاير، بل الأكثر من هذا، كالصوف الملون المصبوغ الذي يتضح ويلوح للناظر من بعيد(١٢).

وتتعدد صور التعادل في العربية، احيانا شكلية موسيقية فقط، واحيانا موسيقية دلالية ومنها في تعادل الفواصل الثلاثة (هاوية، ماهية، حامية)، اذ يتضح من التحليل المقطعي:

هـ ـً / وِ / ي ـَ هـ

م ـً / هـ ـِ / ي ـَ هـ

ح ـً / م ـِ / ي ـَ هـ

سؤال لم هذا التساوي والتعادل أجاء مصادفة ؟ في البدء مقطع طويل مفتوح ويتلوه قصير ثم طويل مغلق أي: (ص ح ح + ص ح + ص ح ص) وعلى انساق ثلاثة متوالية. هذا ليحقق شكل الخاتمة لمن خفت موازينه في اعتبار الله وتقويمه (أمه هاوية)، ثم يستفسر عن تلك الهاوية بـ (ماهية) ثم يجيب ختاما (حامية). إذ التسلسل واضح مرة نتيجة وبعدها سؤال عن تلك النتيجة ثم الاجابة[١٣]، لكن ثمة سؤال لم لا يتحقق التعادل في النص السابق؟ ﴿أَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ۝ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ مع تحققه في عاقبة السوء والشر والرذيلة.

فممكن القول والله اعلم، أن الشيء مفرح للمولى تعالى بأن تكون النتيجة طيبة وان يعيش في رضا، لكن المؤلم حقا أن تكون المعيشة أو المصير إلى ام هاوية، فجاء التعبير بمقاطع متساوية متعادلة لتعبر عن حسرة من باب ﴿يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾.

رابعا / الوقف والوصل

متضحة تماما دلالة الوقف الاصطلاحية، وله اثر كبير في الشكل المقطعي[١٤]، ومن ابرز الاثر له ما جاء في سورة القارعة، وما نبه عليه الشيخ الطوسي رحمه الله، في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ﴾، إذ الهاء في (هيه) عنده للوقف[١٥].

حيث زيادة (ص) على المقطع المفتوح ي ـَ ليقلبه من قصير إلى طويل مغلق، ومن ثم يتحول بفعل النظام المقطعي الجديد السياق القرآني بعد ما كان ذا كسرة أو ما شئت سميها إلى تواصل ملحوظ من حيث الفاصلة والتعادل للوصول إلى جمالية الأداء.

ومن إيضاحات الوقف في السورة ما جاء من تحول أواخر المقاطع فيها فقد تحولت من لون مقطعي إلى آخر كالآتي:

القارعة = ء ـَ ل / ق ـً / رِ / ع ـَ / ت ـُ إلى ع ـَ هـ

من مقطعين مفيدين إلى مقطع واحد طويل مغلق. وهذا ما جرى في ثلاث آيات

المبثوث = م ـَ ب / ث ـُ / ث ـِ إلى ث ـُ ث

من مقطعين طويل مفتوح والآخر قصير إلى مقطع واحد مديد مكروه جائز في الوقف.

المنفوش = م ـَ ن / ف ـُ / ش ـِ في حالة الوصل إلى ف ـُ ش

هنا الحالة كما في سابقتها المبثوث.

وكذلك في هاوية وحامية

هـ ـً / وِ / ي ـَ / ت ـُ ن اذ اصبحت:

هـ ـً / وِ / ي ـَ هـ

ح ـً / م ـِ / ي ـَ / ت ـُ ن إلى ي ـَ هـ

اذ بانقلاب التاء إلى هاء عند الوقف يتحول المقطع الطويل القصير المغلق إلى طويل مغلق في (هاوية)، والمقطعان الصغيران في (حامية) إلى مقطع واحد طويل مغلق.

لكن وكما يتضح من تفضيل قراء القرآن الكريم الوصل على الوقف عند قراءة سورة الواقعة أي القراءة مع الحركات تعود الاشكال المقطعية كما كانت. أي بهذه الشاكلة:

ع ـَ / ت ـُ لثلاث مرات

ث ـُ / ث ـِ

ف ـُ / ش ـِ

ن ـُ / هـ ـُ

ض ـِ / ي ـَ / ت ـِ ن

ن ـُ | هـ ـُ

و ـِ / ي ـَ / ت ـُ ن

ي ـَ / ت ـُ

يتضح في الوصل الإفادة من تعظيم شأن القارعة وهذا بين في درج الكلام المتأتي من حركات المقطع.

إذ تغير حالة المقطع من طويل مغلق في حالة الوقف إلى قصير مفتوح في حالة الوصل، مما يكون له اثر واضح في الطابع الجرسي المتأتي من ضم الكلمات أو الضمتين المتواليتين، مما ينتج اهتماما بالكلمات المتغيرة المقاطع من لدن المنتج، ومما يؤكد عليها اذ يتحقق في نفس المتلقي صدى اكبر مما هو عليه في الوقف.

خامسا / المناسبة:

لا تختلف في مفهومها عن مفهوم الفاصلة أو التعادل، وتعد إحدى وسائل التماسك إذ يقول الدكتور صبحي الفقي: ((إذ إنها تمثل وسيلة من أهم وسائل التماسك النصي: شكليا ودلاليا))[١٦].

وفي سورة القارعة يحسب أنها اضافت أو عملت على الارتباط بين عناصر النص القرآني من جهة الايقاع، حينما اختارت (راضية) فاعلة = ر ـً / | ض ـِ / ي ـَ هـ في حال الوقف، ض ـِ / ي ـَ / ت ـِ ن في حال الوصل من دون مرضية = م ـَ ر / ض ـِ ي / ي ـَ هـ في حال الوقف ض ـِ ي | ي ـَ / ت ـِ ن. في حال الوصل.

فلو اختارت الصيغة (مفعولة) لاختلفت عن الأوليتين فهما يبدآن بمقطع طويل مفتوح، بينما تلك الثانية بطويل مغلق. راضية، هاوية.

وهذا بحسب التفسير أعلاه مما يبقي ما ذهب إليه علماء التفسير القائلين بنيابة اسم المفاعل بمعنى مفعول. ثم إن ما يدخل في اطار المناسبة، ما وقع في بداية هذه السورة بديتها بالمقطع الطويل المغلق د ـَ ل ثم اتبع بطويل مفتوح ق ـً لياسب من خلال الظل والجرسي والايحاء المرهوب الجو العام للسورة[١٧].

اذ فيهما جفاوة وسمع من دون غيرهم. في بعض السور التي تبدأ بطويل مفتوح أو مقطع قصير. كما نجده في سورة حملت طابع التبشير بالخير والفتح ﴿ إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾

ء ـِ / ذ ـً فهي بدأت بقصير مفتوح.

ثم جاءت بما اعقبها بمقطع مديد م ـً ل على ثقله وجفاوته في الدرس الصوتي الحديث[١٨].

لياسب الأمر المستهول الغامض الذي يثير الدهشة والتساؤل[١٩].

في نهاية المطاف التحليلي يتضح مصادفة الجمال القرآني أو المعنى القرآني للبحث المقطعي الإيقاعي الذي رصد في الدرس الصوتي الحديث.

الهوامش:

[١] المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ٣/٣.

[٢] ينظر: المصدر نفسه، والصحيفة نفسها.

[٣] ينظر: الميزان في تفسير القرآن: ٣٤٩/٢٠

[٤] ينظر: مجمع البيان في تفسير القرآن: ٣٦٤/١

(٥) التحبير في علم التفسير: ١٣٩.

(٦) النكت في اعجاز القرآن: ٨٩ ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز.

(٧) ينظر: الفاصلة في القرآن: ٢٧.

(٨) البيان في روائع القرآن: ١/١٩٥.

(٩) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ /٣٩٦٠

(١٠) ينظر: التعادل في العربية: ٦.

(11) ينظر: مجمع البيان ١٠ /٣٦٤.

(12) مجمع البيان: ١٠/ ٣٦٥.

(13) في ظلال القرآن: ٦ / ٣٩٦١

(14) ينظر: المدخل إلى علم أصوات العربية: ٢٧٢.

(15) ينظر: مجمع البيان: ١٠ / ٣٦٥

(16) علم اللغة النصي: ٢/ ٩٣.

(17) ينظر المنهج الصوتي للبنية العربية.

(18) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

(19) ينظر: في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٦٠.

المصادر:

١. البيان في روائع القران، الدكتور تمام حسان، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م.

٢- التحبير في علم التفسير، تأليف جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر السيوطي، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م.

٣- التعادل في العربية دراسة صوتية صرفية نحوية، ابتسام ثابت محمد، رسالة دكتوراه، آداب/ بغداد، ٢٠٠٧م.

٤- علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق دراسة تطبيقية على السور المكية، تأليف الدكتور صبحي إبراهيم الفقي، الناشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة- مصر، ٢٠٠٠م.

٥- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي، ت: ٤٥٦هـ، ط٢، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، ١٩٥٥م.

٦- الفاصلة في القرآن، تأليف محمد الحسناوي، ط٢، الناشر: المكتب الإسلامي، بيروت، الناشر: دار عمار، عمان، ١٩٨٦م.

٧- في ظلال القران، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط٣٤، ٢٠٠٤م.

٨- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، تأليف ضياء الدين بن الأثير، ت: ٦٣٧هـ، تحقيق: الدكتور احمد الحوفي، بدوي طبانة، الناشر: مكتبة نهضة مصر، مطبعة الرسالة، ١٩٦٢م.

٩- مجمع البيان في تفسير القران، الطبرسي (ت: ٥٤٨هـ)، دار القارئ، بيروت، ودار الكتاب العربي، بغداد، ٢٠٠٩م.

١٠- المدخل إلى أصوات العربية، تأليف الدكتور غانم قدوري الحمد، الناشر: المجمع العلمي العراقي، ٢٠٠٢م.

١١- المنهج الصوتي للبنية العربية رؤية جديدة في الصرف العربي، الدكتور عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠م.

١٢- النكت في إعجاز القران (ضمن ثلاث رسائل في الإعجاز)، تأليف علي بن عيسى الرماني ٣٨٦هـ، تحقيق: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، الناشر: دار المعارف، القاهرة، (د.ت).

١٣- الميزان في تفسير القران، محمد حسين الطباطبائي (١٤١٣هـ).